السلوانة الرابعة

obeikandl.com

obeikandl.com

قال الله تقدس اسمه عاتبا من خطَّأ حكمته وتدبيره وسخط قسمته وتقديره ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة :٥٨].

ثم نبههم على ما حُرِمُوه من فضيلة الرضا بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة :٥٩] .

ووصف صفوته من خلقه بالرضى فقال ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] . ومما يفهمك معنى قوله تعالى ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ ما روى أن موسى عليه السلام قال: إِلَهِى دُلَّنِى عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ رَضِيتَ بِهِ عَنِّى . فأوحى الله عز وجل إليه : إِنَّكَ لاَ تُطِيقُ ذلِكَ ، فَخَرَّ مُوسَى سَاجِداً مُتَضَرِّعا إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : يا ابن عِمرانَ رِضَاى فِىْ رِضَاكَ بِقَضَائِى.

خبر نبوى فى الرضا

مما رويناه أن النبى ﷺ قال «**اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ**»(١).

قيل : إنما قال بعد القضاء ؛ لأن الرضى بعد القضاء إنما هو عبارة عن العزم على الرضى ، وتوطين النفس على الرضا بالقضاء إذا نزل ، وإنما يتحقق الرضا بعد حصول القضاء .

خبر نبوى فى مثل ذلك

مما رويناه أن النبى ﷺ لقى رجلا من أصحابه وقد أجهده المرض والحاجة ، فأنكره النبى ﷺ وقال له : «**مَا الَّذِى بَلَغَ بِكَ مَا أَرَىْ ؟ قال : المَرَضُ وَالحَاجَةُ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلاماً إِن أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَهُ**

(١) جزء من حديث أخرجه النسائى : كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر (٣/٥٥) والإمام أحمد فى مسنده (٥/١٩١) وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٧٤٢) وعزاه للطبرانى فى الكبير عن فضالة بن عبيد .

اللهُ بِهِ عَنْكَ ؟ فقال : والَّذِىْ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا يَسُرُّنِى بِحَظِّى مِنْهَا أَنِّى شَهِدْتُ مَعَكَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَة ، فَقَالَ رَسُولُ اللـهِ ﷺ : وَهَلْ لأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَةِ مَا لِلْقَانِعِ الرَّاضِى».

منثور ومنظوم حِكَم فى الرضى

رُوِىَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ[١] رضي الله عنه كَتَبَ إِلى أَبِى موسى الأشعرى[٢] : أما بعد : فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِىْ الرِّضَا ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرْضَى وَإِلاَّ فَاصْبِرْ .

اعلَمْ رَحِمكَ اللهُ : أَنْ الرِّضَا هُوَ إِطْرَاحُ الإقْتِرَاح على العَالَم بِالصَّلاَح ، إِذَا كَانَ الْقَدْرُ حَقاً كَانَ سُخْطُهُ حُمقاً، من رضى حظى ، وَمَنْ تَرِكَ الاقْتِرَاحِ أَفْلَحَ وَاسْتَرَاحَ ، كُنْ بِالرِّضىّ عَامِلاً قَبْلَ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ مَعْمُوْلاً ، وَسِرْ إِلَيْهِ عَادِلاً وإِلاَّ صِرْتَ إِلَيْهِ مَعْدُوْلاً .

وقيل للحسن البصرى[٣]: من أين أوتى الخلق؟ فقال من قلة الرضا عن

---

(١) عمر بن الخطاب : ابن نفيل القرشى العدوى ، أبو حفص أمير المؤمنين ، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، وكان إليه السفارة فى الجاهلية ، وكان عند المبعث شديداً على المسلمين ، ثم أسلم ، فكان إسلامه فتحاً على المسلمين ، وفرجاً لهم عند الضيق ، قال عبد الله بن مسعود : وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر ، وقال عنه الرسول ﷺ «اللهم أيد الإسلام بعمر» ، وروى عن النبى ﷺ أنه بشره بالجنة وشهد له بالشهادة ، ومناقبه رضي الله عنه لا يسعها هذا المكان . الإصابة (٥٧٥٢) الرياض المستطابة (١٤٧) أسد الغابة (٣٨٣٠) .

(٢) أبو موسى الأشعرى : عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، الإمام الكبير ، صاحب رسول الله ﷺ التميمى الفقيه المقرىء ، وهو معدود فيمن قرأ على النبى ﷺ. أقرأ أهل البصرة ، وفقههم فى الدين ، وولى إمرة الكوفة لعمر ، وإمرة البصرة ، جاهد مع النبى ﷺ وحمل عنه علماً كثيراً . مات سنة (٤٤هـ) سير أعلام النبلاء (١٨٨) .

(٣) الحسن البصرى : الحسن بن أبى الحسن يسار ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، وكانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية . وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً . وكان من أعلم الناس بالحلال والحرام . مات فى أول رجب سنة (١١٠هـ) وكانت جنازته مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة ، فشيعه الخلق ، وازدحموا عليه ، حتى إن صلاة العصر لم تقم فى الجامع . سير أعلام النبلاء (٦٠٠) .

الله، فقيل له : ومن أين قَلَّ رضاهم عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .

ومما قلته فى الرضى :

يَـا مُقْرِعِـى فيمـا يَجِـى ... وراَحِمِـى فِيمَـا مَضَـى[1]
عِنْـدِى لِمَـا تَـقْضِيْنـهِ مَـا ... يُرْضِيْـكَ مِـنْ حُسْنِ الرِّضَـى
ومِـنَ القَطِيعَـةَ استَعِيـذُ ... مُصَـرِّحـاً ومُعرِّضـاً

ومن ذلك :

كُـنْ مِـنْ مُدَبِـرِكَ الحَكِيـم ... عَـلا وَجَـلِ عَلَـى وَجَـل[2]
وارْضَ القَضَـاء فَـإِنّـهُ ... حَتْـمٌ أجَـلَ وله أجَـلّ

ومن ذلك أيضًا :

يَامَنْ يَـرى حَـالِى وأنْ لَيْس لِـى ... فِـى غَيْرِ مَـا يُرْضِيهِ أوْطَـار،[3]
ولَيْـسَ لِـى مُلْتَحَـدٌ دُونَـهُ ... ولا عَلَيْـه لِـى أنْصَـار،[4]
حَاشَا لِـذَاكَ الفَضْـل والعِـزّ أنْ ... يَهْلَـكَ مَـنْ أنْـتَ لَـهُ جَـارُ
وإِنْ تَشَـأْ هُلْكِـى فَيَـا مَرْحَبـاً ... بكُـلّ مَـا تَقْضِـى وتَخْتَـارُ
كُلُّ عَـذَابٍ مِنْـكَ مُسْتَعْـذَبٌ ... مَـا لَـمْ يَكُـنْ فَقْـدُكَ والنَّـارُ

ومنه أيضًا :

إذَا أنَـا لَمْ أدْفَـعْ قَضَـاءً كَرِهْتُـه ... بشَىءٍ سِوَى سُخْطِى لَه وتَبَرُّمِى
فَصَبْرِى لَهُ مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَتِى بِهِ ... كَمَـا أنَّ رِضْوَانِـى بِـه مِـنْ تَكَرُّمِـى

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل إن يزدجردالأثيم ابن سابور ذى الأكتاف ، لما وُلِد له ابنه بهرام جور ،

---

(١) المقرع : قابل المشورة .

(٢) الوجل : الخوف .

(٣) الأوطار ، مفردها وطر : وهو الحاجة والبغية .

(٤) الملتحد : الملجأ .

أخبره منجموه بقوة مولده ، وسعادة جدّه ، ووصول الملك إليه بعد شدة ومحنة وطول اغتراب ، وأنه ينشأ بين أمة نابية[١] ؛ ذات همم عليه ، وحلوم زكية[٢] ، ونفوس أبية ، وبهم يصير الملك إليه ، فأجال يزدجرد فكره فى خصائص الأمم ومزاياها ، فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق التى وصف لـه المنجمون ، ووقع اختياره عليهم .

فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر اللخمى[٣] فاستحضره وأشخص إليه جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها ، فوصلهم وبرهم وأخبرهم بما يريد من تمليك النعمان عليهم ، فأنعموا عليه بذلك ، فشرف النعمان وتوجه وملكه عليهم وعلى العرب وسلم إليه ابنه بهرام ، وأمره بكفالته ، فأخذه النعمان واسترضع له أربعة نسوة ، صحيحات الأجسام ، ذكيات الفهوم سنيات الأعراق وسريات الأخلاق ؛ امرأتين من العرب وامرأتين من الفرس، وأجرى عليهن ما يصلحهن ، وانكفأ ببهرام إلى بلاده فبنى له الخورنق[٤]؛ لما اتفق عليه من طيب الهواء وفضيلة الماء ، فأرضع المرضعات بهرام أربعة أعوام ثم فصلنه ، وقد صار غلاما جفر السرعة[٥] نشأته وشبابه .

ولما استكمل بهرام خمسة أعوام قال للنعمان : انظر فى تعليمى ما يحتاج الملوك إليه ، فحدث بينهما محاورة ، ليس هذا موضع ذكرها أودعناها كتابنا المسمى (درر الغرر) المضمن أنباء نجباء الأبناء ، فكتب النعمان إلى يزدجرد

---

(١) أى ذات شرف ورياسة .

(٢) الحلوم : مفردها حلم : وهو العقل .

(٣) النعمان الأكبر : ابن امرىء القيس بن عدى بن نصر بن الحارث بن عمرو بن لخم بن عدى بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب من قحطان ، ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق فى ستين سنة . قال السهيلى : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمار فى عشرين سنة ولم يرى بناء أعجب منه فخشى النعمان أن يبنى لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ففى ذلك يقول الشاعر :

جزانى جزاه الله شر جزائه   جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

البداية والنهاية (٢/١٧٩) .

(٤) الخورنق : قصر بظهر الحيرة بناه النعمان الأكبر ، كما تقدم . معجم البلدان (٢٤٦٢) .

(٥) أى متوسط ومعتدل فى نشأته .

يسأله أن ينفذ إلى ابنه رجالا من حكماء الفرس وفقهائهم ومعلمي كتابهم ، فأرسل إليه يزدجرد بحاجته منهم ، ثم إنَّ النعمان ضم إلى بهرام رجلا من علماء العرب وحكمائها ودهاتها ، كان ذا بصيرة بالسياسة وخبرة بكثير من اللغات وحفظ لأخبار الملوك وسيرتها ، ومعرفة بأيام العرب وغيرها ، وكان اسمه حلسا ، فأفاد بهرام كل واحد من معلميه ما عنده من العلم .

فلما استكمل من السن اثنتى عشرة سنة ؛ فاق معلميه كلهم ، واعترفوا بفضله عليهم ، واستغنائه عنهم ، فصرفهم النعمان مكرمين ، وكره بهرام مفارقة حلس الحكيم ؛ لكونه يجد عنده من المحاسن والآداب والسياسة والأخبار والدهاء ما لم يره مجتمعا فى غيره ، واستدعى النعمان من يزدجرد من يعلم ولده الرماية والفروسية وما يحتاج إليه المحارب ، فبعث إليه يزدجرد بمن أراد منهم ، فمكثوا عند النعمان ثلاث سنين ، فلما استولى على جميع ما عندهم من ذلك صرفهم مكرمين وأمسك حلسا لشغفه به .

ولما استوفى من السن خمس عشرة سنة ؛ استأذن النعمان الملك يزدجرد فى القدوم عليه بولده ، فأذن له فى ذلك ، فوفد النعمان على يزدجرد بابنه بهرام وأوفد معه رؤساء العرب وزعماءها ، فأحسن يزدجرد وفادتهم وأكرم نزلتهم، وأجزل صلة النعمان ، وضاعف تشريفه وسرحه وأمسك ابنه بهرام عنده ، واحتبس بهرام حلسا لعلوق نفسه به .

وكان يزدجرد فظاً غليظ القلب ، شديد الكبر غليظ الحجاب ، مجترئا على سفك الدماء ، واغتصاب الأموال ؛ ولذلك سمى الأثيم ، فعامل ابنه بهرام بالقسوة التى طبع عليها ، وأتعبه وكده واستعمله على مجلس شرابه ، فتبرم بهرام بما ناله من أبيه وعيل صبره وضاق ذرعه ، فشكا ذلك إلى حلس فرق حلس لشكواه، ثم أقبل عليه فقال له ما معناه : جلى الله كربك وأعلى كعبك ، وأطاب ذكرك فى قلوب الأمم وأفواهها ، وكب لعزك ملوك العرب والعجم لجباهها .

وقال له : إن أولى الناس بإمحاض النصيحة[١] ؛ من كان معروفا بها ،

---

(١) أى بإخلاص لا غش فيها .

ومندوبا لها ، ومدعوا إليها ، ومحضوضا عليها .

وإنه قيل : النصائح بشعة المبادئ حلوة العواقب ، فهى كالأدوية ؛ يسوء استعمالها ، ويسر مالها ، ويذم عبها[١] ، ويمدح غبها[٢] .

وكان يقال : الأمين يصحب الملك باللزوم على الخدمة ، والمبالغة فى النصيحة ، والخائن يصحب الملك بحسن المداراة وإفراط التذلل .

وكان يقال : إنما يسعد النصحاء بمثله إذا كان مؤيدا بفضيلة العقل ، فإن لم يكن كذلك شقى به النصحاء وسعد به ذوو الملق ؛ وهذا لأن الناصح ينفق على من نصح له من عقله ، وبالعقل يدرك العقل .

وكان يقال : أشد اللؤم أن تضن بالنصح على من سمح لك بالثقة ، وأن تستر الصواب عمن هتك لك حجاب سره .

وكان يقال : أولى العقلاء النصحاء بقبولك منه وإقبالك عليه من كانت سعادتك شرطا فى سعادته وعلة لها ، ومن كنت معه بهذه المنزلة فسعيه لك سعى لنفسه ، وذبه عنك ذب عنه .

ثم قال حلس لبهرام : إنه قد ساءنى تبرم ابن الملك وضجره لما لقى من خدمة أبيه الملك ، وأنا أشير على ابن الملك بإظهار المسرة بما أظهر به التبرم والضجر ، إذ كان الملك قد استعمله على عمل لابد للعامل فيه من إظهار البشر والطلاقة ، وإن من صحب الملوك بما لا يوافقها تحركت عليه بالغضب ، ولاينبغى مع هذا أن يظهر من ذلك ما يبطن خلافه ، فإن الرياء ينصل[٣] عن الطبع نصول الخضاب[٤] عن الشعر ؛ ولكن ليتأمل ابن الملك القضية التى كرهها بعين العدل يظهر له حسنها، وذلك أن الملك استعمله على مجلس شرابه الذى هو جماع لذته ، وجالب طربه ومسرته وراحة نفسه من نصب التدبير

---

(١) جَرْعُها .

(٢) الغب : عاقبة الشىء كالمغبَّة .

(٣) نصلت اللحية : خرجت من الخضاب .

(٤) الخضاب : ما يخضب به اللحية وغيرها ؛ أى ما تلون به ، وعادة يكون الخضاب بالحناء .

ومشقته ، ووكل إليه مع هذا حراسة مهجته ورضيه لها بحفظها فى مجالس خلوته ، ووثق بكفايته فى صون شرابه من بلية وآفة يقصده به أعداؤه من جهة الشراب ، أو خلل يدخله على عقله السكر والاضطراب ، وكيف يصلح أن يعدل عن الولد الحبيب النجيب بهذا العمل العلى قدره العظيم خطره ؟ أم كيف تطيب نفس الولد الفاضل أن يرى أباه صارفا هذا العمل إلى سواه ؟ فليصرف ابن الملك فكره إلى ما ذكرته له ؛ ليكون ما يظهره من الغبطة بهذه الخطة راجعا إلى عقد يوافقه ومعنى يطابقه ، ولا يتخلق من ذلك بما يتمنى رفضه ، ويبرم منه ما يستحب نقضه ، فينم عليه بما أسره توسم الأبصار(١) وتكهن الأفكار(٢) .

فإنه كان يقال : الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة ، ولا يخفى عن البصائر الباصرة .

وكان يقال : إنما ينبسط سلطان الرياء على السمع والبصر اللذين يدركان الشهادة دون الغيب ، فأما العقل فلا ينبسط سلطان الرياء عليه ؛ لأن الأول الآخر قد كاشفه بكثير من الغيب لاختصاصه إياه .

ثم قال حلس : قد فطن الدب على بلادته لرياء القرد ، فقال بهرام : أخبرنى عن ذلك .

فقال حلس : ذكروا أن دبا كان يسرح فى غيضة ذات أشجار مثمرة ، وكان فى تلك الغيضة قرود ، فكان الدب يرى قوة القرود على رقى الشجر والتطرف لأغصانها ، ويمكنها بذلك من اجتناء أطايب الثمرات ، فحدث نفسه بأن يصيد قردا منها فيكلفه أن يجتنى له الثمر ، فصعد شجرة وألقى نفسه منها ، والقردة تنظر إليه وجعل يتضرر ويتخبط طويلا ، ثم تماوت فخفت وفتح فمه وأخفى نَفَسَه ، واجتمع القردة لرؤيته ، فقال لها حازم منها : إنه لايبعد أن يكون هذا الدب متصنعا خادعا وإن الحزم أن يتجنب ويحذر منه ، فإن لم يكن بد من الدنو منه ، فهلم نجمع حطبا وندوره حوله ونضرم فيه نارا ، فإن كان متصنعا افتضح وإن كان ميتا فلا ضرر علينا فى احتراقه .

وأنه كان يقال : عدوك ضدك ، وحكم الضدين التنائى ، والتنافر ، والتباين

---

(١) أى حُسن وتبين الأبصار .

(٢) الادعاء بمعرفة الغيب .

، والتدابر .

وكان يقال : لا تطأ أرضا وطئها عدوك إلا على توق واحتراس ، وتوقى افتراس ، ولا يغرك خروجه منها وبعده عنها ، فربما رتب فيها شباكا ، ونصب لك بها أشراكا .

وكان يقال : لا تغش عدوك إلا متسلحا متحرزا متحفظا ، ولا يغرك منه استسلامه وإلقاؤه السلاح ، فما كل سلاح يدرك بالبصر ، وقد غرَّ الراهب اللص بمثل ذلك فتم له عليه ما أراد . فقالت القردة : أخبرنا عن ذلك .

فقال : ذكروا أن راهبا كان فاضلا من الرهبان وكان متبتلا فى قلاية[1] له بظاهر اللاذقية[2] ، وكان شيخا فانياً قد نهكته العبادة ، وكان النصارى يخصونه بالصدقات فيقبلها ، ويعطيها أهل الفاقة[3] لزهده فى الدنيا ، وأن لصا من اللصوص رأى كثرة ما يخص به الراهب من الصدقات ، فحدث نفسه بأن يتسور[4] على قلايته ، وظن أنه سيصيب عنده كثيرا .

فتحيل ليلة من الليالى حتى تسور القلاية وحصل مع الراهب فى بيت تعبده، فوجده قائما يصلى والسراج يزهو فى البيت فصاح اللص بالراهب : فر أيها الشيخ قبل أن ألقى عنك رأسك ، فالتفت الراهب فرأى اللص ، وإذا هو شاب شديد البنية فى يده سيف مصلت ، فعلم أنه لا قبل له به ، فقطع صلاته وفر بين يدى اللص إلى ناحية من البيت فى حائطها طاق[5] ، فأدخل الراهب رأسه فى الطاق ، ورد يديه إلى خلفه كما يصنع بالكتوف[6] ، فلما رأى اللص أن الراهب قد استسلم وخبأ رأسه ألقى سيفه ووثب نحو الراهب ليقبض عليه ،

---

(١) القلاية : كلمة يونانية تعنى مسكن الأسقف والرهبان .

(٢) اللاذقية : مدينة فى سوريا على ساحل المتوسط وهى أيضاً ميناء . فتحها العرب قديماً . وهى من أعمال حمص وهى غربى جبلة وهى الآن من أعمال حلب . معجم البلدان (١٠٥٣٢) .

(٣) الفاقة : أهل الحاجة والفقر .

(٤) أى يصعد على الحائط .

(٥) نافذة .

(٦) الكتوف : الذى شدت يداه إلى خلف الكتفين .

فانخسف به ما تحته وسقط فى دهليز[١] القلاية سقوطاً أوهنه ، فمكث على حالته لا يجد محيصا[٢] عن الموضع الذى حصل فيه ، حتى أصبح فدل الراهب عليه ، فأخذ وصلب ، وقد كان الراهب قد اتخذ فى طريق الطاق ثقبا وجعل عليه طبقا ينقلب بلولب إذا اعتمد عليه ، وغطاه ببعض فرش البيت ، فلما قصد إلى الطاق هاربا بين يدى اللص خطر من ذلك الثقب وتخطاه لمعرفته بموضعه ، فلم يضع رجله على الطبق، واللص لم يعرف ذلك ولا استعمل الحزم بالتحفظ ، بل عول على ما ظهر له من استسلام الراهب ولم يدر أنه أعد له سلاحا لا يدركه البصر.

فلما سمعت القردة المثل الذى ضربه لها حازمها ، توقفت عن الإقدام على الدب وانتشرت تجمع الحطب لإحراقه ، فأتى غر من القردة لم يكن حاضرا ذلك الموضع ولا سمع مقالة الحازم ، فدنا من الدب وأصغى بأذنه إلى أنف الدب ليسمع حس نفسه ، فقبض الدب عليه وعمد إلى عرق من عروق الخيزران[٣] فربط طرفه فى وسط القرد وكلفه أن يصعد الشجرة فيجتنى له أطايب الثمر ويلقيها إليه ، والدب ممسك بالطرف الآخر من الخيزرانة ، فلبث بذلك بقية يومه ثم انصرف به الدب إلى غاره ، فأدخله فيه وسد بابه عليه بصخرة ، ولما أصبح غدا على القرد فأخرجه من الغار وانطلق به إلى الغيضة يجنى له الثمر عامة يومه[٤] ، ثم راح به إلى الغار فسجنه به ، فلبث بذلك مدة والدب قد بلغ مناه ، والقرد فى أسوأ حال وأعظم مشقة ، يظل نهاره فى خدمة الدب ويبيت ليله فى سجنه .

وكان يقال : من تعرض لما لا يعنيه تورط فيما لا قِبَل له به ، وكان يقال : شهوات العاقل من وراء فكرته ، فإذا انبعثت له شهوة مرت بفكرته فنظر فى مبادئها وعواقبها ويدبر فيها بحكم الرأى ، وفكرة الأحمق من وراء شهوته فكلما

---

(١) الدهليز : كلمة فارسية تعنى المسلك الطويل الضيق بين الباب والدار .

(٢) مهرباً ومفراً .

(٣) الخيزران ، مفرد خيزرانة : وهو نبات كبير الحجم تستعمل عيدانه لصنع الكراسى أحياناً.

(٤) أى طوال يومه .

انبعثت له شهوة مرت نافذة لوجهها لا يصدها شئ . وكان يقال : إنما صار يسير المؤنة المتحملة للعدو شاقا ؛ لأن الأرواح تحتمل منها أضعاف ما تتحمل الأبدان، فيصير الأذى بها عاما ، وليس كذلك المؤن المتحملة للحبيب ؛ لأن الأرواح تتلذذ بها وتستخدم الأبدان لها.

قيل : ثم أن القرد تفكر فى حاله ، فظهر له أن نصيحته فى خدمة الدب تمنعه من الخلاص منه ، فندم على نصحه فى خدمته وعلم أنه لن ينجيه منه إلا الحيلة ، فطالت فكرته فى ذلك إلى أن اتجه له وجه الحيلة فيه .

وكان يقال : إذا كان المملوك ميت الشهوة ، بليد الفكرة ، رذل الهمة فهو سِلْمٌ لمالكه ، وإن لم يكن بهذه الصفات فإن له فيه شريكا هو أملك به من سيده ، وذلك أنه إذا كان متحرك الشهوة كان منقادا لطاعتها ، وإذا صحت فكرته أعملها فى طلب الراحة من النصب(١) ، والخلاص من الأسر وإقامة الحجج فى الدفع عن نفسه ، وإذا سمت همته اتصف بالغضب والأنفة(٢) والحقد ، وتدبر بما يريد لا بما يريد سيده .

قيل : وكان مما عوّل القرد عليه من الخديعة للدب أن يتظاهر بضعف البصر، فصار يلقى إلى الدب من الثمر ما لاخير فيه ، فزجره الدب عن صنيعه فلم ينزجر وضربه فلم يرتدع ، فلما طال عصيانه عليه قال له : إنى قد سئمت من زجرك وضربك ، وقد حدثت نفسى بأكلك لأنه لم يبق لى فيك منتفع

وكان يقال : إذا لم تجد من الخدمة إلا من أساء أدبه فاخدم نفسك ولا تستخدمه ؛ لأنه يحمل على قلبك من المشقة أضعاف ما تحمل على بدنك .

فقال له القرد : إنى لست على ما تصفنى به من سوء الأدب ولو قتلتنى لندمت كما ندم الطحان حين قتل حماره . فقال له الدب : أخبرنى عن ذلك .

فقال : حُكى أن طحانا كان له حمار يطحن به ، وكانت له زوجة سوء يحبها وهى تحب جارا لها ، وذلك الجار الذى تحبه يبغضها ويمتنع منها ، فرأى

---

(١) التعب والإعياء .

(٢) عزة النفس .

الطحان فى منامه قائلا يقول له : احتفر فى موضع كذا من مدار الطاحونة تجد كنزا ، فحدث امرأته برؤياه وأمرها بكتمانه .

وكان يقال : من زعم أنه يجد راحة فى إفشاء سره إلى غيره فيلتهم عقله؛ لأن مشقة الاستبداد بالسر وترك المشاركة فيه ، أقل من مشقة الحذر من انتشاره بسبب المشاركة فيه .

وكان يقال : أمران يسلبان الحر كمال الحرية وهما قبول البر[1] ، وإفشاء السر . وشرح هذا إن قبلت بِرّه فقد أوجبت على نفسك الخضوع له ، والإحسان يرق[2] الإنسان ، وكذلك من أطلعته على سرك فإن حذرك من إفشائه يلزمك ذل التقية[3] .

وكان يقال : المرأة مؤهلة لبيت تقمه ، وطعام ترمه ، وشبق تسكنه وتثير به، فَمَنْ أشركها فى أمره وأطلعها على سره فقد التحق بعالمها ، إذ ليس فى قواها الالتحاق بعالمه .

قيل : فلما حدث الطحان امرأته برؤياه ، أخبرت بها جارها الذى تهواه وتقربت بها من قلبه ، فواعدها أن يطرقا الموضع ليلاً ليتعاونا على حفره ، وفعلا ذلك ، فوجدا الكنز واستخرجاه فقال جار المرأة لها : كيف نصنع بهذا المال ؟ قالت : نقسمه نصفين بالسواء ، ينطلق كل واحد منّا بنصفه إلى منزله وتفارق أنت زوجتك ، وأحتال أنا فى فراق زوجى ، ثم تتزوجنى فإذا اجتمعنا على النكاح جمعنا المال فكان بأيدينا .

فقال لها جارها : أنا أخاف أن يطغيك الغنى فتتكحى غيرى ، وأنه كان يقال: الذهب فى المنزل كالشمس فى العالم . وكان يقال : من بلغ من اليسار[4] ما فوق قدره تنكر لمعارفه ، وكان يقال : اليسار مفسدة للنساء لغلب شهواتهن على عقولهن ، وكان يقال : لا تسمح لولدك ولا لامرأتك ولالخادمك بما فوق الكفاية ، إن طاعتهم لك بقدر حاجتهم إليك .

---

(١) أى الإحسان .

(٢) يستعبد .

(٣) أى الصيانة والستر والحذر .

(٤) السعة من العيش والغنى .

ثم قال لها : بل الرأى أن يكون جملة المال عندى ؛ لتحرصى على التخلص من زوجك واللحاق بى ، فقالت له المرأة : إنى أخاف منك مثل الذى خفت منى ولست مسلمة إليك حظى من هذا المال ، فلا تحسدنى على حظى منه وقد آثرتك بالدلالة عليه ، وإنَّه كان يقال : إنما صار العدل والإنصاف مشكوراً عليهما لفساد الزمان ؛ لأن الشكر إنما يجب لمن تفضل بحق هو له ، فأما من أعطى الحق أهله ؛ فهو محمود لا مشكور .

فلما سمع مقالتها دعاه البغى والشره والحذر من نميمتها عليه إلى قتلها ، فقتلها وألقاها فى موضع الكنز ، وبعثه الصبح فأعجله عن مواراتها ، واحتمل المال وخرج به ، ودخل الطحان على أثره ، فربط حماره فى المدار ، وصاح به فمشى خطوات ثم اعترض الحفير[1] والقتيل بين يديه فى مداره ، فوقف فضربه الطحان ضرباً شديداً والحمار يتلوم ولا يمكنه التقدم ، والطحان لا يدرى ما بين يديه ، فأخذ سكيناً ونخسه[2] نخسات كثيرة ، ثم استشاط[3] غضبه فطعنه بها على خاصرته[4] فمرت فيه السكين وسقط ميتاً . ولما انتشر الضوء رأى الطحان الحفير ووجد امرأته فيه قتيلا فاستخرجها فرأى آثار الكنز فاشتد أسفه على ذهاب الكنز وهلاك المرأة والحمار ، فقتل نفسه .

فلما سمع الدب مقالة القرد قال له : قد ظهر فيما ضربت من المثل عذر الحمار فما عذرك أنت ؟ فقال له القرد : بصرى ضعف وأخاف عليه أن يذهب بالجملة ، فإن رأيت أن تنظر فى صلاحه فذلك بيدك .

فقال الدب : ومن لى بصلاح بصرك فإن فيه صلاحى ؟ فقال القرد : إن الأطباء لكثير ، ولكن العاقل لا يستطب لألمه من لم يكن من عالمه ، وإن للقردة بهذه الأرض طبيباً تصفه بإجادة الطب والزهد فى متاع الدنيا ، وإنى لأستروح العافية من تلقائه وأستلوح[5] الفرج فى لقائه .

---

(١) الحفير : ما حفر من الأرض وهو القبر .

(٢) أى غرز السكين بجانبه .

(٣) أى اشتد واشتعل غضبه .

(٤) أى بطنه .

(٥) أى تبصر فيه .

فأجابه الدب إلى ما أراد ، فقصد به القرد قردا كان موصوفا بالخبث والدهاء، فلما بلغا إليه فر من الدب ، فقصد شجرة وقام الدب تحتها ، فقص عليه قصة غلامه ورغب إليه فى مداولته ، فقال له القرد الخبيث : دعه يطلع حتى أنظر إلى عينيه فأرخى له فى الخيزرانة ، فصعد يتأمل عينيه ويسأله عن خبره ، فقص عليه خبره مع الدب ، وسأله أن يفتح له باب المكيدة فى الخلاص من يده ، فقال له القرد الخبيث : إنى سأحمله على السهر ، فاحتل لنفسك بانتهاز الفرصة إذا نام وكن على حذر من أن يتناوم ليختبرك .

ثم أمره بالنزول ، فنزل ، وأقبل القرد الخبيث على الدب فقال له : إنه ينبغى أن أعرفك داء عبدك قبل أن أدلك على دوائه ، إذ يستحيل العلم بالدواء من الجاهل بالداء ، فاعلم أن القردة إنما صحت جسومها ، وقلت لحومها ، وتوقدت فطنها وفهومها ؛ لأنها وفرت على السهر دواعيها ، وجعلت ليلها حظا من مساعيها .

وإنه كان يقال : كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار .

وكان يقال : من لزم الرقاد حرم المراد .

وكان يقال : لا يصح أن يقال فى حد الجود أنه سماحة النفس بالنفس ، ولو صح هذا لكان أجود الأجواد من كثر نومه ؛ لأنه سمح بحياته التى لا يجد له كفاء ولا يصيب منها عوضاً .

ثم قال القرد الخبيث للدب : إنك لما أخرجت عبدك هذا عما اعتاد أدخلت عليه الفساد كما صُنِعَ بالطائر الذى أصيد لابنة الملك ، فقال له الدب : أخبرنى عن ذلك .

فقال القرد : ذكروا أن ملكاً من ملوك اليونانيين كانت له ابنة تكرم عليه جداً، فهاجت بها المرة السوداء ، فأدخلت عليها أنواعاً من الأمراض ، وبلغ بها الأمر إلى الامتناع من الغذاء والدواء ، فأشار طبيبها بأن تنقل إلى ارتفاع تشرف منه على بستان موتق[1] وماء جار ، ففعل ذلك بها ، فرأت فى اليوم الذى نقلت فيه إلى ذلك العلو طائراً فيه من كل لون قد نزل على دالية[2] ، فأكل

(١) أى مزهر جميل .

(٢) شجيرة الكرم .

من عنبها ، ثم غرد تغريداً عجيباً بأنواع من النغم المطربة ، فارتـاحت الجاريـة لما رأت وسمعت من الطائر واستدعت الغذاء .

وكان يقال : أفضل النغم المطربة ما سمع من الصـورة الحسنة ، يحـرك الشهوة والطرب جميعاً ، فتتظافر القوتان وتفعلان فعل الأدويـة المركبـة ، فإنها أنجح من الأدوية المفردة وأشد فعلا.

قيل : ثم إن ذلك الطائر أسرع الذهاب ولم يعد يومه ذلك ، فظهر على ابنـة الملك القلق لغيبته ، ولما كان الغد عاود الطائر الدالية فـى مثـل وقتـه بـالأمس ، فسرت ابنة الملك بعودته ، فاستبشـرت وارتـاحت وأكلـت وشـربت ، وانصـرف الطائر فى يومه كما انصـرف فـى أمسـه ، فعاودهـا القلـق لغيبتـه ، وبلـغ الملـك خبرها فى ذلك ، فأمر باصطياد الطائر فاصطيد وجعل فى قفص ، وأتحف ابنته به فاشتد سرورها ، واغتذت وتـداوت ، ورأى الطبيـب انتعـاش قوامهـا فعالجهـا وطمع فى سلامتها ، ولم يعلم بأمرها مع الطائر ، وأن ذلك الطـائر لبـث عندهـا أياما لا يصوت ولا يطعم شيئا ، وأخذ حسنه فى التغيـير ، فعـادت الجاريـة إلـى أسوأ أحوالها ، وجعلت تذوب لمـا نالهـا من الاهتمـام بـأمر الطـائر مضافـا إلـى مرضها ، وعلم بذلك أبوها فندم على اصطياد الطائر .

وكان يقال : لا تكن تلميذاً لمن يبـادر إلـى الأجوبـة عن المسـائل قبـل أن يتدبرها ويتفكر فيما يتفـرع عنهـا ، ويعـد لدفـع مـا يمكـن أن يعترض بـه علـى جوابه، ويلزمه خصمه من المناقضه لأصوله ، كما إنك لا تستشير الغر الذى لا يتجاوز مبادئ الآراء إلى عواقبها ، ولكن تلمذ(١) لمن يتفكر فى الآواخر قبل أن يجيب عن الأوائل، كما تشاور المحنك المدبر لبطون الأمور وظهورهـا المطلـع على مبادئها وعواقبها .

قيل : فلما علم الطبيب ما انتقلت حال الجارية إليـه مـن الفسـاد ، عـرف أن ذلك لعارض طرأ عليها ، فبحث عنه فاطلع على قصتها مع الطائر ، فأشار بـأن تُنصب شباك محيطة بالبستان علواً وسفلاً ، فصنع ذلك على مـا أشـار ، فـأطلق الطائر فى البستان ، فلما رجع الطائر إلى مـا اعتـاده وائتلفـه ، راجعتـه صحتـه

---

(١) أى كن تلميذاً .

وحسنه وألف تغريده ، فصلحت بذلك الجارية ، ونقهت[١] من مرضها .

قيل : فلما قضى القرد الخبيث ما ضربه له من المثل ، قال له الدب : قد سمعت مقالتك ووعيت حكمتك ، فَمُرنِى بما فيه مصلحة عبدى هذا ؛ أطع أمرك، فقال له القرد : إنى آمرك أن تتأخر فى مسرحك[٢] جزءاً من الليل ، فإن ذلك زيادة فى عمرك وطعمتك ونعمتك ، ومهيج لنشاطك وانبساطك ، ومضاعف للذة منامك ، ومساعف لمصلحة غلامك ، فشكره الدب على نصحه ، وانطلق بعبده إلى مسرحه ، فاجتنى له فى نهاره ذلك أخابث الثمر ، فلما جاء الليل أظهر القرد نشاطاً ومرحاً ، واجتنى فى تلك الليلة أضعاف ما يجتنيه ثمرات طيبات ، فلبث بذلك صدراً من الليل ، ثم انكفأ[٣] به الدب إلى الغار فسجنه فيه وغدا عليه كعادته .

ولبث القرد أياماً يتظاهر فيها إذا أَجَنَّ الليل بقوة البصر ، ويجتنى للدب أطايب الثمر ، على حال تدريج ، والدب لم تسكن نفسه إلى الثقة بالقرد ، بل يتكهن عليه أنه متصنع خادع ، وكلما زاد القرد فى تصنعه زاد الدب فى الريبة به ، وإنَّهُ ليلة من الليالى أراد الانصراف إلى مأواه فجعل القرد يماطله ويقول : هاهنا ثمرات طيبات ، فيتأخر الدب ، لما طبع عليه من الشره والنهمة[٤] وكانت ليلة مقمرة ، فحدث الدب نفسه بأن يتناوم ليختبر القرد ، ويمتحن ظنه به ، فتناوم وجعل يغط[٥] ، فما كذب أن وثب القرد هارباً فجذبه الدب بالخيزرانة جذبة شديدة ، فانقطع ظهره منها ومات .

قيل : ولما بلغ الحكيم حلس الأعرابى إلى غاية هذا المثل الذى ضربه لبهرام أمسك عن القول ، فقال له بهرام : ما أبهجنى بقربك وأقر عينى بما تفيدنى من حكمك ، وتضرب لى من أمثالك ، وتجلوه على من ملحك ، ولئن

---

(١) أى شفيت مع ضعف .

(٢) المسرح : المرعى .

(٣) رجع .

(٤) أى كثرة الأكل .

(٥) أى نخر فى نومه واستغرق فيه .

obeikandi.com

بقيت إلى أن تدول لى دولة لأجعلنك أول داخل علي وآخر خارج عني ، وسأروض نفسي بآرائك مستعينا بالله ، فسجد جلس ودعا له بنجح الأمل .

ثم إن بهرام جور شهد والده ليلة من ليالى سروره وقد نضر النور بين يديه، فكان مثل الزرابى المخملة[1] ، والتيجان المرصعة[2] ، فتذكر بهرام بين يديه أيامه عند النعمان ، وانتجاعه الرياض الأنيقة ، وشربه فيها على الأزاهر المطلولة[3] ، إلى ما كان ينعم به من مباكرة الوحوش فى معانها[4] ومراعيها ، والتفكه بطرادها واصطيادها ، فأطرق واستولت عليه الفكرة ، وعبس وتنفس الصعداء ، وأبوه يزدجرد يسارقه النظر ، ثم إنه استفاق فنظر إلى أبيه وعلم أنه كان بمرأى منه ، فأسقط فى يده ولم تمض إلا ساعة حتى قبض الملك بشره ونكس رأسه ، فنهض كل من بحضرته من ندمائه وسماره ، وكانت تلك عادة ملوك الفرس ، إذا عبس الملك منهم أو أطرق لم يبق بحضرته أحد إلا استوى قائما على حال خشية وسكون .

وكان ليزدجرد مضحك طريف اللسان ، لطيف الفطنة ، حسن الاختراع، جيد البديهة حلو النادرة ، فحضر ذلك المقام وفطن للأمر الذى تنكر له الملك ، وأن ذلك لما كان من عبوس ولده وإطراقه فى مجلس المسرة ، فحدث ذلك المضحك نفسه بأن يحسن إلى بهرام ويصطنع عنده يدا ، فتحيل له بحيلة يخلصه بها من غضب أبيه ، وبينما هو يناجى نفسه بالحيلة فى ذلك رفع الملك رأسه إلى ذلك المضحك ، فنظر إليه كأنه يحركه على أن يصطنع شيئاً فيه سلوة له ، فسجد المضحك ثم جثى على ركبتيه وقال : إن العبد يستأذن الملك فى أن يخبره عن نفسه بخبر عجيب ، فنظر إليه بهرام كالإذن له .

فقال المضحك : إن العبد كان فى حداثة سنه كلفاً بالنساء مفرطا فى الشبق إليهن ، إلا أنه كان ملولاً لا يلبث على محبة من أحب منهنّ ، وكان كلما استحسن امرأة هام بها ، وتهالك فى حبها .

---

(١) الزرابى ، مفردها الزربى : وهو ما يبسط ويتكأ عليه . المخملة : أى اللينة كالقطيفة .

(٢) أى التيجان التى نظمت فيها الجواهر .

(٣) أى الأوانى التى أصابها الطلّ وهو الندى .

(٤) أى وديانها ومنازلها .

وكان يقال : من أَتْبَعَ لحظة هواه أدحضه وأهواه .

وكان يقال : كن من عينك على حذر ؛ فرب جموح حين جناه طموح عين

وكان يقال : ما أحرى الملول بأن يحرم المأمول .

وكان يقال : السآمة(١) من أخلاق العامة وليست من أخلاق السامة(٢) .

وكان يقال : التنقل من حلة إلى حلة كالتنقل من ملة إلى ملة .

ثم قال المضحك : وإن العبد دخل بلاد السند(٣) فبينما هو يطوف ببعض مدنهم رأى امرأة لم يرَ قبلها فى حسن الصورة ، وامتداد القامة ، ورشاقة الحركات، ولباقة الإشارات ، وسحر الطرف ، وتألق الظرف ، فتبعها العبد وهو لا يرى مواطئ قدميه من الدهش حتى بلغت منزلها فدخلته ، ولزم العبد باب منزلها ليلا ونهارا ، فأرسلت تستعفيه من لزوم بابها وتحذره سطوة أهلها ، فشكا العبد إلى رسولها ما يلقاه من الشغف ، وأعلم الرسول أنه لا معدل له عن بابها، وأنه مستميت فى طلابها ، فلهيت عن العبد مدة ، ثم أعادت الرسول إليه ، فرده العبد إليها بمثل كلامه الأول ، فأرسلت إلى العبد تقول له : إنى أظن بك الملل والغدر ، ولولا ذلك لأسرعت إلى مساعدتك وإنى متزوجتك بشرط الوفاء ، فإن غدرت أهلكتك بعد أن أنكل بك نكالا يضرب به المثل ، فإن التزمت هذا الشرط فأقدم وإلا فانج بنفسك قبل أن يتعذر عليك الخلاص .

وكان يقال : أربعة ترفع الرحمة عنهم إذا نزل بهم المكروه : من كذب طبيبه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى ما لا يستقل بأعبائه ، ومن بدد ماله فى لذاته، ومن أقدم على ما حذر من آفاته .

وكان يقال : من بصرك فقد نصرك ، ومن وعظك فقد أيقظك .

وكان يقال : من أوضح وبين فقد نصح وزين ، ومن حذر وبصر فما غدر

---

(١) الملل .

(٢) السامة : الحيوانات والماشية .

(٣) السند : بلاد بين بلاد الهند وقرمان وسجستان فتحت فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى . ومذهب أهلها الغالب عليها مذهب أبى حنيفة النعمان . معجم البلدان (٦٦٨٣) .

obeikandl.com

ولا قصر .

قال المضحك: فالتزم العبد الشر [illegible] عطى من نفسه المواثيق على الوفاء ، فتزوج العبد المرأة وبلغ منها أمنيته ، فلبث معها مدة ، فزارتها تِرْب[1] لها فلمحها العبد فأعجبته ، ومالت نفسه إليها ، فتبعها العبد إلى منزلها وجعل يراسلها ويلازم بابها ، فاقتربت منه وشكته إلى امرأته ، فعاتبته امرأته على ذلك وزجرته، وأذكرته العهود ونهته ، فازداد لجاجا[2] ، فلما رأت ذلك منه سحرته فصار أسود اللون مشوه الوجه ، وجعلت تستخدمه فى كل مهنة ، فما شغله ما هو فيه عن أن هوى أمة سوداء، فجعل يتبعها فى تصرفها ويتعلق بها ويؤذيها ، فلما كثر ذلك على الأمة شكته إلى امرأته التى سحرته .

وكان يقال : إنما كان المطبوع أملك به من أدب المؤدب ؛ لأن الطبع أصلى وتمده القوى الناشئة معه ، فهو أملك بالنفس التى هى محله لاستيطانه إياها وكثرة أعوانه بها ، والأدب طارئ على المحل غريب به .

وكان يقال : أضل المؤدبين سعياً من رام من المتأدب أن يعاونه على نفى طبعه عنه ، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه وآثر عنده من مؤدبه ؟ لكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المذموم من طباعه وتعميته والتورية عنه .

قال المضحك : فلما بلغ امرأة العبد ماكان منه ، اشتد غضبها عليه ، ثم سحرته فصار حمارا ، فجعلت تكريه[3] ممن يستعمله فى أشق الأعمال ، ويستحمله أثقل الأحمال ، فلبث بذلك مدة طويلة ولم يشغله ما هو فيه من البلاء عن أن يهوى أتانا[4] ، واشتد شغفه بها ، وكان كلما رآها نهق وطلبها أشد الطلب ويرد عنها بالضرب ، فيلقى من ذلك بلاء شديدا ، واتفق أن امرأة العبد الذى سحرته زارت ابنة ملك تلك المدينة فكانت معها فى علوٍ لها تشرف منه

---

(١) صديقة .

(٢) إلحاحاً .

(٣) تؤجّره .

(٤) أنثى الحمار .

obeikandl.com

على ما حوله ، وكان العبد فى ذلك اليوم قد استأجره شيخ كبير السن ضعيف البدن ، فاحتمل عليه أوانى فخار فى جولقين(١) ، ومر به على قصر ابنة الملك ، فرأى عند القصر تلك الأتان التى يهواها ، فما ملك نفسه أن نهق وقصدها ، وفعل بها ما تفعل الحمير عند ذلك ، وجعل الناس يضربونه من كل جانب والفخار يتساقط على ظهره ، والشيخ صاحب الفخار يصيح ويستغيث ، وجعل الصبيان والسفلة يغطغطون(٢) من كل جهة ، والأتان فارة بين يديه ترمحه وهو يطلبها على تلك الحال .

فرأت ابنة الملك ذلك كله فأعجبها وأضحكها ، فقالت لها امرأة العبد التى سحرته : يا ابنة الملك ألا أخبرك بأعجب مما رأيت من هذا الحمار ؟ قالت لها : بلى فافعلى ، فقالت : إنه زوجى ، وقصت عليها خبر العبد ، فاشتد تعجبها مما سمعته وسرت به ، ثم سألتها أن تبطل سحر العبد وتخلى سبيله ، فأجابتها إلى ذلك فأبطلت السحر عن العبد فسار بشراً سوياً ولم يكن له هم إلا الفرار من بلاد السند .

فلما انتهى المضحك إلى هذا المبلغ سكت ، وقد كان الملك يزدجرد اشتد ضحكه ؛ لما سمعه من حديث المضحك ؛ ولما شاهده من حركاته فى وقت حديثه، فلما سكن ضحكه وعاوده الوقار والأبهة ، أقبل على المضحك وقد اكفهر(٣) له فقال : ويحك ما حملك على أن تكذب هذه الكذبة الشنعاء ، كأنك ما علمت أنا نحظر الكذب على رعيتنا ونعاقبها عليه ، وقد قالت الحكماء : الكذب كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة ، وقد تدخل فى تراكيب الأدوية فينتفع بها، فلا ينبغى للملك أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح ، كالكذب فى كيد الأعداء ، وفى تآلف البعداء ، كما لا ينبغى أن يطلق ملك تلك السموم التى ذكرناها إلا للمأمونين عليها المانعين لها من المفسدين .

---

(١) الجولق : كلمة فارسية وهو العِدْل ، ما يحمل عليه من صوف وشعر .

(٢) أى يصدرون أصواتاً ماجنة تضرب أصوات القطا .

(٣) أى عبس .

فقال المضحك : أيها الملك السعيد إن هذا مثل تضمن من الحكم ما يعود بمصلحة المرتاض به(١) ، والذى حملنى على ذكره أمر يلزم ستره عن غير الملك .

فأشار الملك إلى جلسائه ، فقاموا فخرجوا عن مجلسه ، ثم قال للمضحك : هات ما عندك .

فقال المضحك : إن عبد الملك يخبره أن ولده الفاضل بهرام عاشق .

فقال الملك : لمن ؟ قال : لابنة الأصبهيد .

فقال الملك : لقد كان من بهرام فى هذه الليلة ما يدل على صدقك ولا لوم على ولدنا فى ذلك ، إذ لم يضع من نفسه بمحبة ابنة حافظ ملكنا وسيد أوليائنا، وسيبلغ ولدنا أمنيته ويُحْسَنُ إليه باطلاعنا على أمره ، فاكتم ذلك حتى ينفذ أمرنا فيه .

ثم إن يزدجرد أذن لندمائه ، وسماره ، ومطربيه ، وولده فعادوا إلى مجلسهم وأخذوا فيما كانوا فيه ، ورجع إلى يزدجرد سروره وطربه إلى أن انقضى مجلسه وخرج القوم من عنده ، وتبع المضحك بهرام وأخبره بالخبر على وجهه فشكر له ووصله، ثم إن يزدجرد أنكح ابنه بهرام ابنة الأصبهيد ، ولم يزل بهرام يروض نفسه على الرضى بخدمة أبيه حتى انقادت لما أراد منها ، فلبث بذلك إلى أن قدم أخ لقيصر على يزدجرد ساعيا فى الصلح والهدنة والموادعة ، فأكبر يزدجرد قصده، وعرف له فضله وأحسن نزله .

فلما رأى بهرام منزلة أخى قيصر عند يزدجرد استشفع به عنده فى رده إلى النعمان ، فشفعه وأذن لبهرام ، فتحول إلى بلاد العرب فكان فيها على ما أحب ، إلى أن هلك أبوه وورث ملكه .

قال محمد عفا الله عنه : هذه خاتمة سلوانة الرضى ، وقد عَنَّ لنا أن نذكر ما تكمل به بهجتها ، وهو الإخبار عن مهلك يزدجرد وما أحدث رعيته بعده

---

(١) أى المقتدى به .

وكيفية مصير الملك إلى ابنه بهرام ، وذلك مما ذكر المعتنون بأخبار ملوك الفرس ، أن يزدجرد لما كثر عسفه[١] ، واشتد عتوه[٢] ، وعدل عما نهجه سلفه من العدل والرأفة ، اجتمع وجوه رعيته من ذوى الصلاح عندهم فدعوا الله على يزدجرد وسألوه معافاتهم منه ، فرحم الله ضراعتهم واستجاب دعاءهم .

وبينما يزدجرد جالسا فى منتزه له دخل عليه حاجبه ، فأخبره أن فرسا متوحشا عريانا قد جمع محاسن صفات الخيل ، فهو ذو صورة لم ير الراؤن مثلها، جاء يشتد عدوا حتى قام بباب الملك ، وأن الناس تهيبوه فلم يجترىء أحد على أن يدنو منه ، وأن الخيل قد نافرته فما تقدم عليه ، فاستخف يزدجرد ما سمعه من وصف الفرس ، فنهض نحوه ، فلما عاينه ملىء إعجابا به ودنا منه ، فخضع له الفرس فمسح يزدجرد بناصيته ووجهه ، وقبض بناصيته ، وأمر بإسراجه وإلجامه ، فألجم وأسرج .

فيقال : إن يزدجرد استدار بالفرس ومسح كفله[٣] فرمحه الفرس رمحة خر منها ميتا ، وملأ الفرس فروعه عدوا ، فما عرف إلى أين توجه ، ويقال : بل ركبه يزدجرد وحركه فسبق الأبصار حتى أتى البحر فاقتحم به والله أعلم أى ذلك كان.

ولما رأى الفُرس أن الله قد أراحهم منه ، أجمعوا على أن يخرجوا الملك من ولد يزدجرد خوفا من أن يسن فيهم مثل سنة أبيه ، فملكوا رجلا من أبناء ملوكهم السالفة يقال له : كسرى ، وكان مرضيا عندهم ، فمحا ما شرعه يزدجرد من المظالم وأعفى الفرس من جميع ما كرهوه ، فعرف بركة رأيهم فى تمليكه .

وانتهى الخبر إلى النعمان فأطلع عليه بهرام وأخبره أنه عاضده وناصره وباذل نفسه وماله فى مرضاته ، فشكر له بهرام وأمره بشن الغارات على أطراف بلاد الفرس مع الكف عن سفك الدماء ، فأمر النعمان العرب بفعل ذلك

---

(١) ظلمه .

(٢) فساده وقسوته .

(٣) عجزه ومؤخرته .

ففعلوه ، فاشتد ضررهم وأرسلوا إلى النعمان يستعفونه ويسألونه العود إلى إحسان المجاورة ، فلما انتهى الرسل إلى النعمان قال لهم : إنما أنا خادم الملك بهرام أفعل ما أمرنى به فاذهبوا إليه ، فذهبوا إليه فلما عاينوه ملأ عيونهم جمالا وصدورهم جلالا ، فخروا له ساجدين وسألوه العفو والصفح ، فأجمل خطابهم وبسط آمالهم ، وأمرهم أن يبلغوا من وراءهم أنه حسن الرأى فيهم مؤمل لإصلاح شأنهم ، وأنه متوجه إليهم ليتولى إخبارهم عن نفسه وإقامة الحجة عليهم، فليتأهبوا لذلك .

ثم صرف الرسل مكرمين وأمر النعمان فكتب له عشر كتائب فى كل كتيبة ألف فارس من أنجاد[١] العرب ، ثم سار فيهم ، وسار النعمان بين يديه فى جيش كثيف ، فلم يكن عند الفرس لهم مدافع حتى انتهوا إلى دار الملك ، فنزلوا بظاهرها، فخرج إليه زعماء الفرس وحفظة دينهم ، ونُصب لبهرام كرسى فجلس عليه ، وقام النعمان بين يديه ، وتقدم إليه القوم فسجدوا له وقاموا لديه ، فأذن لهم فى الكلام فتكلم رئيس الموابذة[٢] فحمد الله وذكر رأفته بخلقه ، ثم ذكر ما سار به يزدجرد من الجور وما فعل الله به ، ثم أتبع ذلك بذكر كراهة الفرس لتمليك من ولده يزدجرد ؛ لما يتخوفونه من سلوك سبيل والده ولا سيما وقد نشأ بين الأعراب الذين يصلحون جسومهم بإخراب الأرض ، وسأله أن يعفى الناس مما كرهوه ؛ فإنهم لا يملكونه طائعين ولا يقصرون فى دفاعه عن ذلك بكل ما أمكنهم .

فلما قضى رئيس الموابذة كلامه ، تكلم بهرام فحمد الله سبحانه وشكر نعمه عنده ، وصدق رئيس الموابذة فيما نسب إليه يزدجرد من الجور والعسف ، ثم اتبع ذلك بذكر ما كان يتمناه من مصير الملك إليه ؛ ليزيل رسوم الجور ويشد قواعد الحق ، ويذيق الرعية من حلاوة رأفته وإحسانه أضعاف ما أذاقهم أبوه من غلظته وإساءته .

ثم أعلمهم أنه لا يترك تراث أبيه ولا يألو جهداً فى تحصيله ، وأنه مع ذلك يدعوهم إلى أن يضعوا تاج الملك وزينته بين أسدين ضاريين ويحضر هو

---

(١) أنجاد ، مفردها نجد : وهو الشجاع السريع الإجابة إلى ما دعى إليه .

(٢) الموابذة ، مفردها الموبَذ : وهو قاضى المجوس .

وكسرى المتغلب على ملك أبيه ، فمن أخذ التاج والزينة من بين الأسدين ؛ فهو بالملك أولى.

وذكر لهم أنه إنما يفعل ذلك رأفة برعيته ، وصونا لهم عن مقاومته ودفاعه، وثقة بنصر الله وعونه لما يعلمه من حسن طويته وخلوص نيته ، ورغبته فى إصلاح الأرض وأهلها .

فرضى زعماء الفرس بما بذله بهرام من نفسه ورجوا الراحة منه بذلك من غير مشقة تنالهم فى دفعه ، وانقلبوا عنه متعجبين من جماله وكماله وفصاحته وأبهته .

ثم عمدوا لأسدين ضاريين فجوعوهما ، وأخرجوهما إلى ظاهر المدينة فى قفصين من حديد ، وفى عنق كل واحد منهما سلسلة فى طرفها وتد من الحديد ، فضربوا الوتدين فى جهتين مختلفتين وجعلوا بينهما بقدر ما إذا خرج كل واحد من الأسدين فقصد الآخر بلغ إليه ، وجعلوا تاج الملك وزينته بينهما ، وبحيث يمكن كل واحد من الأسدين الوصول إليهما والذب عنهما ، وفتحوا القفصين عن الأسدين فخرجا ، وقد اجتمعت أمة عظيمة من الفرس واجتمع العرب فقاموا بإزائهم ، فخرج بهرام من قبته وقد شد وسطه بمنطقة[١] ، وجمع ذيوله إليها ، فأقام بإزاء الأسدين بين الصفوف ونادى كسرى : أن اخرج أيها المتوثب على ملكنا المتغلب على تراثنا ، فخذ تاج الملك الذى انتزعته من أهله .

فأجابه كسرى إنك أولى بالتقدم على ما أعطيت من نفسك ؛ لأنك الداعى إليه المتبرع له ، ثم إنك تطلب الملك بوراثة وأنا غاصب ، فدنا بهرام من الأسدين ولا سلاح معه ، فلما رأى رئيس الموابذة أن بهرام قد عزم على فعل ما بذل من نفسه، ناداه : يا بهرام إنك مستميت ولا إثم علينا فيك ، فقال بهرام : أجل أنا فعلت ذلك بنفسى ؛ ولكن لرأفتى بكم ولابد من فعله ، فقال له موبذان : إن كنت لابد فاعلاً فبء إلى الله بذنوبك وتب إلى الله واستعن .

فذكر بهرام ذنوبه وتاب إلى الله منها وسأله العون ، ثم دنا من الأسدين فقصده الأسد ، فلما قاربه راغ عنه بهرام روغة ، ثم وثب من الأرض ، فإذا

---

(١) النطاق وهو ما يشد به الوسط .

هو على ظهر الأسد ، فضم الأسد بفخذيه ضمة تبلد لها الأسد وفرج بين قوائمه وثبت مكانه يلهث ، وقصده الأسد الآخر فانتهى إليه حتى ألصق رأسه برأس الأسد الذى تحته، ولم تمكنه السلسلة من زيادة التقدم ، فقبض بهرام على أذنيه ، وجعل يضرب برأسه رأس الأسد الذى تحته حتى سقطا جميعا ميتين ، فقام بهرام قائما على قدميه وحمد الله على صونه وعونه وأزال نيوله من منطقه ، وتناول تاج الملك فوضعه على رأسه ، فناداه كسرى الذى كان الفرس ملّكوه ليُهَنّ بهرام الملك بن الملك ما أعطاه الله من ميراث سلفه ، فكلنا له سامع مطيع، ثم ارتفعت أصوات الفرس بالدعاء له ، وتقدم إليه موبذان موبذ فأخذ بيده ، وأجلسه على سرير ملكه ، وشد عليه زينة الملك ، وباء[1] له بالطاعة وتتابع زعماء الفرس على ذلك .

وركب بهرام فدخل المدينة ونزل بقصر أبيه ، وفرق الأموال فى ذوى الحاجات وأهل النجدة ، وحبا النعمان وشرّفه وتوّجه ، وأجاز العرب الذين صحبوه بأسرهم على أقدارهم ، ثم إنه وفى لرعيّته بمواعيد عدله وإحسانه ، ولم يزل محمودا فيهم حتى هلك ، وقد دون الفرس له أخبارا عجيبة أودعنا منها خبرين نادرين كتابنا المسمى (درر أنباء نجباء الأبناء) .

وبعد ؛ فالحمد لله بما هو أهله وصلى الله على محمد وأهله .

---

(١) أى أقر واعترف .